

التكرار من البلاغة العربية إلى لسانيات النص مرثية المتنبي لجذنه إنموذجا

د. شارف عبد الكريم، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر.

ملخص

تحاول هذه الدراسة المتواضعة أن ترصد صور التكرار في قصيدة المتنبي في رثاء جدته، وتنطلق من مسلمة قد لا يختلف فيها وهي أن التكرار في هذه القصيدة كان بعيدا كل البعد عن الكلفة.

والمتنبي، وإن أتهم في قصائد رثائية أخرى باصطناع الحزن، يبدو أصدق ما يكون في ميميته. وذلك بالنظر إلى منزلة المرثي، وبالنظر إلى الظرف الذي احتوى هذا الحدث وقد قدمت هذه الدراسة بتعريف للتكرار في البلاغة العربية وأنواعه وأغراضه ثم في لسانيات النص، محاولة استثمار المعطى النظري في التطبيق على النص المستهدف.

Abstract

This modest study tries to monitor the pictures repetitions in a poem Mutanabi lament his grandmother, and the start of a Muslim may not be different where a repetition in this poem was a far cry from the cost. The Mutanabi though charged in other poems Rthaiha Baatnaa sadness seems to believe what is in Mimith, given the status of Almrthy, given the envelope, which contained this event.

This study has provided a definition of a repeat in Arabic rhetoric and types and purposes then the text linguistics, trying to invest in a given theoretical application on the target text.

1.1 التكرار:

– لغة : التكرار لغة من جذر « ك ر ر »، قال ابن منظور : الكرّ الرجوع والكرّ مصدر كرّ عليه يكرّ كرّاً وكُرّورا وتكرارا عطف، وكرّ عنه رجّع وكرّ على العدو يكرّ... وكرّز الشيء وكرّره أعاده مرّة بعد أخرى.. والكرّ الرجوع على الشيء ومنه التكرار. ⁽¹⁾ وقال الزركشي « التكرار مصدر كرّز إذا ردّد وأعاد، وهو «تفعال» بفتح التاء وليس بقياس وليس بخلاف التفعيل، وقال الكوفيون هو مصدر فعل والألف عوض عن الياء في التفعيل ⁽²⁾، فهو في معنى الإعادة والرجوع. وذكر السجلماسي التكرار في المتنزع البديع، قال «كرّز تكريرا ردّد وأعاد، والتكرار فيه هو بنية مبالغة وهو من باب ما تكثّر فيه المصادر من «فعلت» بلحاق الزيادة وهي الفاء المفتوحة من أوله لقصد المبالغة ⁽³⁾». وللمادة كرر معاني أخرى هي في جوهرها لا تختلف عما ذكر.

– اصطلاحاً : التكرار في الكلام وسيلة يلجأ إليها المتكلم لأغراض، تختلف باختلاف المقام، وصوره عديدة، ذكر صاحب الفوائد أن التكرار «أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء كان اللفظ متفق المعنى أو مختلفاً، أو يأتي بمعنى ثم يعيده، وهذا من شرطه اتفاق المعنى الأول والثاني، فإن كان مُتَّحداً الألفاظ والمعاني فالفائدة في إثباته تأكيد ذلك الأمر وتقديره في النفس، وكذلك إذا كان المعنى متّحداً وإن كان اللفظان متفقين والمعنى مختلفاً فالفائدة في الإتيان به الدلالة على المعنيين المختلفين ⁽⁴⁾». ويفهم من هذا أن التكرار يشمل :

– تكرار اللفظ والمعنى.

– تكرار اللفظ دون المعنى، ويدخل ضمنه الجناس والمشكلة.

– تكرار المعنى دون اللفظ ويكون بالترادف مثلاً.

ووافقه صاحب «المتنزع البديع» إذ يرى أن التكرار «إعادة اللفظ الواحد بالعدد أو النوع أو المعنى الواحد بالعدد أو النوع في القول مرتين فصاعداً ⁽⁵⁾». وقوله بالعدد أو النوع فيما يتعلق باللفظ اتفاقاً بناءً ومعنى، وهذا الذي يسميه مشكلة، أو اتفاقه بناءً فقط ويسمى عنده تجنيساً.

ويرى ابن جني أن العرب إذا أرادت المعنى مكنته واحتاطت له، وذكر أن التكرار على ضربين :

– الأول تكرير الأول بلفظه كقول الشاعر:

وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ الْمِرَاءَ فَإِنَّهُ ❖ إِلَى الشَّرَدَعَاءِ وَلِلشَّرْجَالِبِ

– والثاني تكرير الأول بمعناه ⁽⁶⁾ وخرج من ذلك . عند ابن جني . تكرير اللفظ والمعنى

مختلف .

ولابن الأثير رأي لا يختلف عن ابن جني، فهو يرى أن التكرار يكون في الكلام تأكيداً وتشبيهاً من أمره ، وإنما يُفعل ذلك للدلالة على العناية بالشئ الذي كررت فيه كلامك ، إما مبالغة في مدحه أو في ذمه ، أو غير ذلك ⁽⁷⁾ والتكرير عنده ما يوجد في المعنى واللفظ ومنه ما يكون في المعنى وحده .

ومن سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر كما ذكر ابن فارس ومن ذلك قول الشاعر:

قَرِيبًا مَرِيبٌ النَّعَامَةُ مَيِّ ❖ لَفَحَتْ حَرْبٌ وَأَثَلٌ عَن حِيَالِ

فكرر قوله «قرباً مربط النعامة مئى» في رؤوس أبيات كثيرة عنانية بالأمر وإرادة الإبلاغ في التنبيه والتحذير ⁽⁸⁾، وبذا يكون مجاوزاً غاية التأكيد إلى غايات أخرى .

2.1 صور التكرار في البلاغة العربية:

تحدث البلاغيون عن التكرار وحدوا أنواعه في «تكرار اللفظ والمعنى وتكرار المعنى دون اللفظ»، ومن تكرار اللفظ والمعنى قوله تعالى ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ⁽⁹⁾.

ومن تكرار المعنى دون اللفظ قوله تعالى ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ ⁽¹⁰⁾، فالبحث معنى قريب من الحزن، وقد ذكر ابن الأثير من تكرار المعنى دون اللفظ ، قول الصحابي حاطب بن أبي بلتعة معتذراً للرسول صلى الله عليه وسلم «وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام». قال . ابن الأثير . وبعض الجهال يظننه تكريراً لا فائدة فيه ، وليس كذلك ، والذي يدل عليه اللفظ هو أنني لم أفعل ذلك وأنا كافر، أي باق على الكفر، ولا مرتداً أي أنني كفرت بعد إسلامي ، ولا رضى بالكفر أي ولا إثارة لجانب الكفار على جانب المسلمين ... فكرر المعنى في اعتذاره قصداً للتأكيد والتقدير لما ينفي عنه ما رُمي به. ⁽¹¹⁾

وقد عرفت العرب فنونا كثيرة في أشعارها ومنثورها كلها تنبني على التكرار كالإطناب والترديد ورد العجز على الصدر والجمع والتقسيم والعكس والتبديل والجناس وغيرها.

3.1 أغراض التكرار :

إن من مزايا التكرار في الكلام البليغ وغاياته تأكيد الكلام والرجوع إلى المعنى المراد تبليغه مرة بعد مرة ، وهذا بالطبع مستفاد من المعنى المعجمي للمصطلح ، على أن البلاغيين رصدوا له أغراضاً أخرى فضلاً عن التأكيد، وليس غريباً أن يهتم به العرب .

في كلامهم ونقدهم. «فقد وقع مثل ذلك التكرير في القرآن الذي هو أفصح كلام وأنق نظام في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾⁽¹²⁾ فكرر ذكر الميزان ثلاث مرات في مقدار يسير من الكلام وأمثاله في القرآن كثير⁽¹³⁾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾⁽¹⁴⁾ وأنت ترى أنه لعظمة يوم القيامة جيء بلفظه مؤكدا.

ويرى ابن قتيبة أنّ التكرار من سنن العرب في كلامهم وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾⁽¹⁵⁾ قال «فقد أعلمتكم أن القرآن نزل بلسان القوم وعلى مذاهمهم، ومن مذاهمهم التكرار، إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهمهم الاختصار إرادة التخفيف، وقد يقول القائل (والله لا أفعله ثم والله لا أفعله)، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله»⁽¹⁶⁾ وإنما استدل بهذا لأن العرب من عادتهم تكرير القسم.

كما أن التكرار أسلوب «يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها»⁽¹⁷⁾ وفي الحديث: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم» فكرر عليه الصلاة والسلام ذكر «الصلاة» لأهمية الحفاظ عليها ولئلا يستهين امرؤ بأمرها.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة ورد فيها التكرار، وتختلف أغراض التكرار فيها باختلاف السياقات، وقد أوجز الزركشي أغراض التكرار في القرآن الكريم فيما يأتي:

التأكيد، والتكرار أبلغ من التأكيد.

زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾⁽¹⁸⁾.

إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانية تطرية له وتجديدا لعهد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾⁽¹⁹⁾.
التعظيم والتهويل قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾⁽²⁰⁾.
الوعيد والتهديد، قال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾⁽²¹⁾.
التعجب، قال تعالى: ﴿فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَرْتُمْ قَتِلَ كَيْفَ قَدَرْتُمْ﴾⁽²²⁾.

وفي القرآن الكريم صور مختلفة من التكرار، منها تكرار قصة موسى عليه السلام وقصة آدم عليه السلام مع إبليس، وتكرار هذا القصص له دواع. وفي الشعر العربي تكثر أساليب التكرار وهي: على اختلافها. لا تخرج عن تكرار اللفظ والمعنى أو تكرار اللفظ دون المعنى أو المعنى دون اللفظ، ولهذه الأساليب دواع، ذكر ابن رشيق أنها «التشويق والاستعذاب والتنويه بالمكرر في المدح تفخيما له، والتقرير

والتوبيخ وتعظيم المحكى عنه ، والوعيد والتهديد في عتاب موجع والرثاء، وهو أولى تكرر فيه الكلام لمكان الفجعية وشدة القرحة التي يجدها المتفجع،⁽²³⁾ وكلها مواضع يحسن فيها التكرار إذا كان ذا فائدة.

وفكرة التكرار المفيد وغير المفيد ليس لها معيار ثابت به تعرف الفائدة من الإطالة في غير فائدة ، بل إن «ضبط الحاجة إلى التردد والتكرار غير ممكن ، لأنه أمر يتصل بأقدار المستمعين ومن يحضر الحديث من العامة والخاصة»⁽²⁴⁾ وما يفعل المتكلم إزاء بعض المعاني من تكرار لها فإنما يكون بحسب القصد الذي يرمي إليه أو بحسب أهمية الأمر ، ولا يكون التكرار في الكلام البليغ إلا من قبيل الإطناب كما ذكر ابن الأثير، وهو إطناب لا يخلو من فائدة.

أما الزركشي فإن ظاهر كلامه «وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظنا أنه لا فائدة له وليس كذلك بل هو من محاسنها لا سيما إذا تعلق بعضه ببعض»⁽²⁵⁾ أن التكرار لا يكون معيبا ألبتة.

ويرى حازم القرطاجني في حديثه عن تحسين الكلام بتحسين هيئاته أن ذلك قد يحصل بما يكون بين الألفاظ من تناسب في الصفات «مثل أن تكون إحداها مشتقة من الأخرى مع تباين المعنيين...ومنها أن تكون كل كلمة قوية الطلب لما يليها من الكلمة، أليقَ بها من كلّ ما يمكن أن يوضع موضعها.»⁽²⁶⁾

كما يكون التكرار في مقامات المفارقة حين يعتمد المتكلم إلى شدّ السامع نحو ما يريد من معنى عن طريق المحافظة على اللفظ الأول وإدماجه .مشاكلا .في معنى آخر وهذا «لتأكيد التفريق على وجه التضاد ، وتكرير اللفظ يدلّ أولا على توهم التماثل فيما تعلق به ، فإذا اختصّ كلّ من اللفظين بما ارتبط به تمتّ المفارقة وزاد التبيين لما هو مغروس في الطبع من حبّ الموازنة وانتخاب الأوفق.»⁽²⁷⁾

والرثاء يتخذ من التكرير ألوانا ، فقد يكون لإسم المرثي...وقد يكون لأوصافه ، كما يكون لاسم الموت ، الذي حال بين الراثي والمرثي ، بقوة لا حيلة في ردها لمحتال ، كما يكون التكرار للبكاء والنحيب ، يقرر الفجعية في الذاهب ويرضي حقّ الوفاء من المقيم.⁽²⁸⁾

2. التكرار في لسانيات النص:

إن الذي حدّه البلاغيون العرب من صور التكرار فيه سعة ، مع قلة التفرّيعات، وفي الدراسات النصية المعاصرة تفصيلات لصور التكرار ، لكنها على اختلافها لا تخرج عن تكرار اللفظ والمعنى أو تكرار المعنى دون اللفظ، وبعد التكرار من وسائل التماسك

النصي على المستوى المعجمي .

يذكر محمد خطابي أن التكرار هو «إعادة عنصر معجمي ما أو مرادفه أو شبهه أو عنصر مطلق أو أسم عام»⁽²⁹⁾ ما يحقق ترابطاً بين أجزاء النص، لأنه يقدم العناصر التي سبق للقارئ معرفتها إما بصورتها السابقة أو بصور يفهم أنها تحيل إليها، كما الحال مع الترادف أو شبهه، مثل قولنا «يسر الإنسان بالنجاح ويسر بالمال الحال، ويسره الولد الصالح، ويفرح إذا رأى من الناس ما يعجبه» ولا يخفى ما يحققه تكرار الجذر «سرّ» اسماً وفعلًا من تماسك بين أجزاء هذه الجمل مجموعةً، وكذلك الحال مع الفعل «يفرح» وإن كان بلفظ مختلف وبمعنى غير مطابق. والتكرار عند علماء النص يقع تحت أربعة عناوين:

1.2.1 التكرار المحض: وهو إعادة العنصر المعجمي من غير تغيير، وقد يكون المرجع واحداً أو مختلفاً⁽³⁰⁾ ومثال المرجع الواحد قول القائل: «العلم وحده لا ينفع، ولا بد من عمل بهذا العلم، وإذا كان السلاح لا يدفع الضر عن الإنسان إلا إذا استخدمه فكذلك العلم..» ومثال اختلاف المرجع قول الشاعر:

وأي فتى في الناس أرجو مقامه ❖ إذا أنت لم تفعل وأنت أخو الفضل؟
فقل لأبي العباس إن كنت مذنباً ❖ فأنت أحق الناس بالأخذ بالفضل
ولا تجحدوا بي ودّ عشرين حجة ❖ ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل⁽³¹⁾

فليس لفظ (الفضل) بمعنى واحد في الأبيات، وهذا من الجناس، لكنّه يلفت انتباه القارئ إلى العلاقات بين المعاني، ولا يشك أحد في أن الشاعر استعمل اللفظ في أبياته اهتماماً منه بما يحمله هذا اللفظ من مناسبة للمعنى وإن كان مختلفاً.

2.1.2 التكرار الجزئي: وهو تكرار المعنى دون اللفظ، ويكون بالترادف أو شبه الترادف، ومثاله قولنا «ينبغي على المرء أن يعيش عزيزاً لا يرضى المذلة، وأن يبتعد عن كل أشكال الخضوع، ولو كان فقيراً محتاجاً... وإذا قصد فليقصّد الكريم السخي» فقد تكرر معنى الذل بلفظ «الخضوع» والفقير بلفظ «محتاجاً» والكريم يرادف «السخي» تأكيداً على المعاني التي يراها المتكلم ذات أهمية.

وقد يضاف إلى هذا ما يكون من تكرار بتوظيف الأضداد من قولنا «أن يعيش عزيزاً ولا يرضى المذلة» ومثل «أطع أباك ولا تعص له أمراً، حتى يرضى عنك ولا يسخط» فالمعاني متكافئة بما يتيح الإثبات ونفي الضد من تساوي بينهما.

3.1.2 الاسم الشامل: وهو عبارة عن اسم يحمل أساساً مشتركاً بين عدة أسماء، ومن ثم يكون شاملاً لها⁽³²⁾ ومثاله «الرجال يُذكرون بمواقفهم، وهل للإنسان من عمر

غير الذكر الحسن ؟ فالإنسان جنس يعم كل رجل وهو في السياق دال على الرجال بمعنى ما ، وهو أشمل من لفظ «الرجال» .

4.1.2 الكلمات العامة: وهي كلمات فيها من العموم والشمول ما يتسع بكثير عن الشمول الموجود في «الاسم»⁽³³⁾ الشامل ذلك أنه يمكن أن ترد في سياقات أعم ، بمعنى أن «لفظ «إنسان» في المثال السابق قد يرد ما هو أعم منه للدلالة على معناه ومعنى فرعه «الرجل» كقولنا: خالد يبيع الجرائد لتحصيل بعض الدراهم، ومتى كان الإنسان يكسب المال بغير عمل ؟ ، لا بد للمخلوق أن يسعى من أجل الرزق» ، فالجملة الثانية تمثل تكراراً بالاسم الشامل «الإنسان . المال . العمل» والجملة الثالثة أكثر احتواءً للمفاهيم العامة «المخلوق . الرزق . السعي».

غير أن مستعملي اللغة قد يعدلون . اتساعاً . ببعض الألفاظ حتى تصبح بمنزلة الكلمات العامة أو العكس وفي العربية أمثلة كثيرة كلفظ «القوم» الذي يستخدم للدلالة على الرجال والنساء ، وعلى الرجال وحدهم في سياقات ، ولفظ «الرجل» الذي يستخدم في سياقات كثيرة بمعنى الإنسان ، وقد يستعملون «الصاحب» بمعنى الخصم أو العدو وغيرهما.

3. أغراض التكرار في لسانيات النص:

إن غاية التكرار الأولى فيما يتعلق باتساق بُنى النص إحداث تأثير دلالي يحسه القارئ، «لأن تكرير الاسم إنما هو تكرير المعنى ، أي المسمى وليس تكرير اللفظ...إنها عملية تقوم على تكرير لفظ أو استبداله بآخر دون تجدد في الخارج، فيكون الأمر من قبيل تجدد الدلالة على المعنى وتعطل تجدد الأحوال على الخارج»⁽³⁴⁾ وقد يعني هذا أن التكرار لا يكون لغرض لفظي وإن كان تكراراً للفظ .

ثم إن التكرار في النص يرمي إلى تأكيد المعلومة حين «يصير الاسم المكرر بوصفه معلومة مؤكدة أو ما يسمى الوصف المحدد ، من خلال عملية تكرير مستمرة للاسم . اسماً متسيدا في النص ، أي موضوع النص»⁽³⁵⁾ فالاسم قد يأتي في نص ما نكرة دالة على العموم ثم يتدرج المبدع في تحديد صفاته.

والتكرار يحقق التبادل بين علاقات مكونات النص ، و«يستعمل بوضوح من أجل تقرير وجهة نظر معينة وتوكيدها...يستعمل للتعبير عن الدهشة من وقائع قد تبدو متضاربة»⁽³⁶⁾ لأن النص نسيج لا بد فيه من الترابط ، فقول الشاعر :

وقفت وما في الموت شك لواقف ❖ كأنك في جفن الردى وهونائم

تكرار لمعنى الموت بلفظ «الردى» واللفظان وإن اختلفا إلا أنهما يحيلان المتلقي

إلى تصور هذا الرجل سالما وهو في خضم المعركة.

ويشترط بعض النصائين أن لا تختلف مرجعية الاسم المكرر، لئلا يضيع الاتساق، ومتى انشغل القارئ بالبحث عن مرجعية للفظ المكرر ووجدتها مختلفة نقص إقباله على النص لذلك «تتطلب إعادة اللفظ وحدة الإحالة»⁽³⁷⁾ وأكثر ما يكون ذلك في المشترك اللفظي.

وقد يرجع هذا التحفظ . من قبلهم . إلى ما يسببه التكرار مع اختلاف المرجع من «نقص إعلامية النص» والأمر ليس على إطلاقه، خاصة في النصوص الإبداعية التي يعتمد فيها المتكلم الإنماض على المتلقي ، وقد يُقبل . المتلقي . على إعادة النظر والتبصر في المعنى إذا رأى الألفاظ المكررة غير متحدة المرجع.

التطبيق:

النص:

- | | | | |
|---|---------------------------------|---|------------------------------------|
| ❖ | ألا لا أرى الأحداث حمدا ولا ذما | ❖ | فما بطشها جهلا وما كفها حلما |
| ❖ | إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى | ❖ | يعود كما أبدى ويكري كما أرمى |
| ❖ | لك الله من مفجوعة بحبيها | ❖ | قتيلة شوق غير ملحقها وصما |
| ❖ | أحن إلى الكأس التي شربت بها | ❖ | وأهوى لمثواها التراب وما ضما |
| ❖ | بكيت عليها خيفة في حياتها | ❖ | وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما |
| ❖ | ولو قتل الهجر المحبين كلهم | ❖ | مضى بلد باق أجدت له صرما |
| ❖ | عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا | ❖ | فلما دهتني لم تزدني بها علما |
| ❖ | منافعها ما ضربي نفع غيرها | ❖ | تغذى وتروى أن تجوع وأن تظما |
| ❖ | أتاها كتابي بعد يأس وترحمة | ❖ | فماتت سرورا بي فمت بها غما |
| ❖ | حرام على قلبي السرور فإنني | ❖ | أعد الذي ماتت به بعدها سما |
| ❖ | تعجبت من خطي ولفظي كأنها | ❖ | ترى بحروف السطر أغربة عصما |
| ❖ | طلبت لها حظا ففاتت وفاتي | ❖ | وقد رضيت بي لورضيت بها قسما |
| ❖ | فأصبحت أستسقي الغمام لقبرها | ❖ | وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصمما |
| ❖ | هبيني أخذت الثأرفيك من العدى | ❖ | فكيف بأخذ الثأرفيك من الحتى |
| ❖ | وما انسدت الدنيا علي لضيقها | ❖ | ولكن طرفا لا أراك بــــه أعى |
| ❖ | ولولم تكوني ابنة أكرم والد | ❖ | لكان أبالك الضخم كوكب لي أما |
| ❖ | لئن لَدَّ يوم الشامتين بيومها | ❖ | لقد ولدت مَيَّ لأنفهم رغما |
| ❖ | تغرب لا مستعظما غير نفسه | ❖ | ولا قابلا إلا لخالفه حكما |

ولا سالكاً إلا فؤادَ عجاجةٍ ❖ ولا واجداً إلا لمكرمة طعماً⁽³⁸⁾

4. التكرار في مراثية المتنبي لجذته:

ذكر البلاغيون للتكرار أغراضاً تختلف باختلاف المقام، وليس من مقام يجد فيه الشاعر نفسه أحوج إلى التكرار من مقام الرثاء، وهو أولى غرض «تكرر فيه الكلام لمكان الفجائية وشدة القرحة التي يجدها المتفجع»⁽³⁹⁾ ومن شدة ما لاقى من الحزن بفقد من يحب.

ويبدو أن هذه العجوز التي بينت للمتنبي أمره ومهدت له طريقه كانت مع حزمها وهدايا وبصيرتها، رقيقة القلب.⁽⁴⁰⁾

والتكرار في مقام الرثاء لا يكون معيباً إذا سلّم القارئ بأنّ الشاعر يقول ما يقول ارتجالاً لا تكلفاً، وإذا كان في نفوس قوم أن الشاعر يبتغي العطاء على ما يقول «وإذا كان المديح تكسباً في أكثره، فإن الرثاء، كان معظمه صادقاً ينجرّف فيه الشاعر وراء قلبه فيصِفُ ألمه وإحساسه بالعذاب لفقد من أحبهم»⁽⁴¹⁾، ولم يكن للمتنبي من قومه. فيما ذكر المؤرخون. أحد ذكر في قصائده إلا جذته.

ويرى محمود شاكر أن المتنبي «لم تعطفه عاطفة إلى أحد من أهله.. إلا أن تكون هذه الجدة الكريمة التي حملته صغيراً وتكلمته شاباً بفراقه لها، ثم ماتت به سروراً حين جاءها كتابه»⁽⁴²⁾ وهذا يؤيده ما ذكر المتنبي نفسه في رثاءها.

1.4 التكرار اللفظي (المحض):

توزعت عاطفة الشاعر في هذا النص بين الحزن والأسف والغيظ، حزنٌ لفقد المتنبي جدّته أو أمّه كما ذكر، وأسفٌ لأنه لم يلقها ومُنِع من رؤيتها، وغيظٌ لأن أعداءه فرحوا بموت هذه المرأة، ولعل لكل عاطفة ما يبررها في القصيدة، على أن المتنبي كرر بعض الألفاظ كما هي أو بمختلف تصاريفها واشتقاقاتها، فهو يكرر مثلاً لفظ الفتى «إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى» وتكراره يشير إلى أن الإنسان لا بدّ له من مآل يكون فيه كما كان أول الأمر، قد يشير بصورة التأكيد على أن الحال لا تختلف به بدءاً ونهاية، فكما كان من عدم فهو صائر إليه، وعمره ينقص كما زاد.

ثم إن المتنبي لا يرى جذته إلا قتيلة، وإن كان ليس ثمة في الواقع قاتل، ولعل هذا إشارة إلى شدة تعلقها به، يقول «لك الله من مفاجعة...قتيلة شوق» ثم يؤكد «ولو قتل الهج» فقد كرر جذر «قتل» اسماً ثم فعلاً وهذا التكرار «يحقق التبادل بين علاقات مكونات النص، و«يستعمل بوضوح من أجل تقرير وجهة نظر معينة وتوكيدها...يستعمل للتعبير عن الدهشة من وقائع قد تبدو متضاربة»⁽⁴³⁾.

والذي يشير إليه المتنبي أمام هذا الموقف أن موت جدته كان «من حزنها عليه» وسيذكر ذلك صريحا في بيت لاحق، ولم يستطع أن يقرّ بموتها موتا طبيعيا، لذلك تراه يؤكد على فكرة «القتل» وسيستمر هذا المعنى في أبيات كثيرة بألفاظ أخرى.

ثم يكرر المتنبي في السياق ذاته لفظ «فات» وإن كان المعنى مختلفا قليلا، يقول «طلبت لها حظًا ففاتت وفاتني أي: «فاتتني» و«فاتني الحظ» فلم أدرك ما سعت إليه من معيشة ولم أحضَ بعيشة مع هذه الجدة الكريمة، ولعلّه يبكي في هذا البيت «قلة تدبيره» لأنه ترك العيش معها. وقد أصرت على بقاءه. ليدرك عيشا تمناه، ولو أن الشاعر استخدم لفظ «ماتت» بدل ما استخدم، لم يكن في المعنى هذا الانسجام، لأن تألف المعاني كثيرا ما يحصل حين تكون كل كلمة قوية الطلب لما يليها من الكلمة، أليق بها من كل ما يمكن أن يوضع موضعها.⁽⁴⁴⁾ «ولا يخفى على المتمعن أن قوله «فاتت وفاتني» ليس كقوله «ماتت وفاتني» لأن في الأول تكرارًا أراد به التأكيد على أنه لم يهجرها إلا ليعود بحظ أحسن، فلم يدركه ولم يدركها حية وقد سار لملاقاتها.

وفي البيت نفسه تكرر آخر في قوله «رضيت بي لو رضيت بها» ولعله بهذا التكرار يُظهر تعجبه مما أقدم عليه، وقد كان باستطاعته ألا يهجرها، لأن هذه الجدة ربه صغيرا وأحبته وكرهت أن يفارقها، فلم يهجرها؟

ووجود هذا التكرار يرمي إلى تأكيد المفارقة بين موقف المتنبي وموقف جدته، وذلك «بتأكيد التفريق على وجه التضاد، وتكرير اللفظ يدل أولا على توهم التماثل فيما تعلق به، فإذا اختص كل من اللفظين بما ارتبط به تمت المفارقة وزاد التبيين لما هو مغروس في الطبع من حب الموازنة وانتخاب الأوفق⁽⁴⁵⁾ والشاعر أثبت «رضا الجدة» وعدم «رضاه» وذلك في سياق موهم بتركيبه، فقد نفى عن نفسه ما أثبتته للجدة من خلال التمني (أو الشرط) «لو رضيت بها» وهذا قد يرمي به إلى إظهار حسرته.

ويظهر التكرار المحض كذلك في قوله «فماتت سرورا فمتُّ بها غمًا» وقوله «حرام على قلبي السرور» فقد جعل الشاعر نفسه ميتا كما ماتت جدته، وأعاد على القارئ اللفظ ليحيله على المعنى الذي أراد، فلا فرق بين حالها وحاله، من حيث إن كلمهما قد مات، وفي المقابل فإن موتها كان من سرور، وكان موته هو غمًا، وهذه مزية أخرى للتكرار حيث يشترك اللفظان في الصورة وفي المعنى المحوري ويفترقان بحسب ما يساق معهما.

وفي موضع آخر يكرر الشاعر اللفظ عن طريق المشاكلة حين يقول: «أصبحت استسقي...كنت استسقي» وذلك حفاظا منه على تناسب المعاني، وإن كان لفظ استسقي

يصلح في الأول ولا يصلح في الثاني إلا أن تكرراره يحفظ اتساق البيت، ومثل هذا التكرار «يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها» فقد أشار إلى أنه لم يترك طلب دماء الأعداء إلا ليدعو لجذته بالسقيا، وفي هذا إشارة إلى ما دأب عليه وما سيكون منه، فكل الأُمَين عظيم عنده، لذلك جعل «الاستسقاء» دليلا على إلحاحه في طلب القتال.

والعاطفة التي كانت تنازع عاطفة الحزن لدى المتنبي هي غيظه مما فعل أعداؤه، لذلك تراه يخاطب جدته متسائلا كيف «يستطيع أن يأخذ بثأرها من الحمى» وهذا لا يكون ولا يستطيعه الشاعر عليه، غير أن توظيف لفظ «الثأر» جاء لمشكلة أخذ الثأر من الأعداء» وهذا كسابقه في لفظ الاستسقاء .

ويورد المتنبي الجذر «ولد» اسما ثم فعلا في قوله «ابنة أكرم والد» و «ولدت مني» لينبّه على شرف هذه الفقيدة وصحة نسبها، ولينبّه. أيضا. على أن هذا النسب المعبر عنه بلفظ الوالد. مستمر لا ينقطع، وكما أنها ابنة أكرم والد، فكذلك هي أم لرجل كريم يصح نسبها إليه، وإن كان فرعاً، وفي هذا كذلك افتخار وتعظيم منزلة، ولعل الشاعر يريد أنها حتى لو لم تكن صحيحة النسب فإن كونها أمًا له يكفيها، كما يؤكد على مضيه في محاربة الأعداء.

2.4 التكرار الجزئي (الترادف وشبه الترادف):

يرى أحد الباحثين أن «التكرير في أعلى صورته انبعاث وجداني يفيض على السامع حرارة يتحرك لها قلبه، وإلا كان صورة باردة تفقد نبض الحياة»⁽⁴⁶⁾، ولا يمتري أحد. وهو يقرأ هذه المرثية. أن المتنبي لم يكن يريد بعد هذا جزاء، ولا هو يصطنع حزنا يرضي به سلطانا أو ممدوحا، ولعل هذه القصيدة واحدة من القصائد التي تظهر فيها نفسيته من غير زيف، وهو إذ يكرر بعض المعاني كمثّل «الرجوع، العلم، اليأس الحظ، السرور» فإنما يفعل ذلك كي يحيط بالمعنى الذي يريد، فقولته «إلى حيث ما كان الفتى مرجع الفتى...يعود كما أبدى «هو معنى مكرر دون لفظه» «و حيث ما كان الفتى إشارة إلى بدايته» و«كما أبدى «يشابهه في الدلالة، وكذلك قوله «مرجع يعود»، وقد يكون هذا مناسبا في سياق الرثاء، لأن الإنسان حين يواجه حقيقة الموت لا بد أن يذكر جدلية البقاء والفناء، والبدء والإعادة، كما أن الشاعر يحاول أن يعزي نفسه..وذلك دأب كل عاقل.

ومثل هذا التكرار يظهر في قوله «عرفت الليالي...لم تزدني بها علما» فقد عدل عن لفظ «عرف» إلى لفظ «علما» وبين المعنيين شبه ترادف، والغرض من تكرير

هذا المعنى أن الشاعر نزل «معرفته» بالليالي منزلة العلم ،وأكد على أن هذا العلم ثابت، والتكرار يُحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والأستهانة بقدرها⁽⁴⁷⁾ «وتكرار هذا المعنى دليل على أن المتنبي يصور نفسه أمام هذا الخطب العظيم رجلا عظيما حكيما لا تهزه المصائب، لذلك فإن الفعل «أرى» الذي في مطلع القصيدة يدخل في هذا المعنى لأنه رؤية قلبية ،وهو بمنزلة «أعرف وأعلم».

ثم يصور المتنبي طول انتظار جدته له بقوله «أتاها كتابي بعد يأس و ترحة» ومعنى اليأس قريب من معنى «الترحة» في هذا السياق ، لأن الجدة كان يأسها من رؤيته ممزوجا بالحزن ،واليأس من الشيء قد يكون حزينا عليه ،وجدته كانت تريد رؤيته ولما يئست أن تراه حزنت لذلك ،فكان تصوير الشاعر لعاطفتها أكد إذ جمع اليأس والترحة.

والتكرار «إن كان متّحد الألفاظ والمعاني فالفائدة في إثباته تأكيد ذلك الأمر وتقديره في النفس، وكذلك إذا كان المعنى متّحدا»⁽⁴⁸⁾ دون اللفظ ففيه زيادة تكثف المعنى، وفي وصف المتنبي لفرح جدته بكتابه يقول «تعجب من خطي ولفظي ... بحروف السطر».

ولا اختلاف بين «الخط» و «حروف السطر» إذا كان الإنسان لا يهتم إلا بما كُتب، أو من كتب ،أما في هذا الموقف فإن الخط يذكّر الجدة . بكتابه و«الحروف » تصف لها ما كتب، فكأن المتنبي يرمي إلى أن «كتابتَه الكتابَ بخطّه» قد مثله في عينها، والذي حملته الكتاب من خلال حروفه جعلها ترى وتسمع كما لو كان هو من لقيها وتحادث.

وفي قوله «طلبت لها حظا ...رضيت بها قسما» شبه ترادف بين الحظ والقسمة، ويحقق هذا التكرار اتساقا وترابطا بين أجزاء النص ،فالمعنى المكرر لا بد أن يسبق إلى ذهن القارئ أنه كالأول ،وفي هذه الحال يردّه إلى جزء قد سبق إدراكه في السياق ،وإذا كان المعنى مكرّرا بشيء من التصرف، فإنه يزيد القارئ معنى إلى المعنى الأول ،وليس «الحظ» الذي طلب المتنبي هو في قوله «قسما» لأن الأول يشير إلى الكسب ،وقد يشير إلى الغنى بطريق ما ،وهذا ما لا يشير إليه لفظ «قسما» الذي يعني كل ما نال الإنسان وافرا كان أم غير وافر.

وفي قوله «أكرم والد ..لكان أباك» تكرار جزئي حين أشار إلى أصول هذه الجدة ، وكثيرا ما يعبر عن الأب والأم بالوالدين أو الأبوين على سبيل الاتساع، فاستعمل الشاعر لفظ الوالد للدلالة على نسبها الكريم، ولفظ «الأب» للدلالة على نسلها الكريم

كذلك . للتعظيم والتهويل ، والمبالغة في الافتخار ، ودأبُ العرب أن تكني بأبي فلان للتعظيم .

ويمتنع ، في هذه الحال ، أن يكون التكرار محضاً ، لأن لفظ «الوالد» يصلح للأب كما يصلح لكل أصل ، ولا يكون صالحاً إذا كان المقصود أحد الفروع ، كما في حال المتنبي ، ولفظ الأب يسمى به الإنسان مجازاً كما لا يتسمى بوالد إلا إذا كان والداً فعلاً .

3.4 الاسم الشامل والكلمات العامة:

إن انتقال المتكلمين عادة من الألفاظ الدالة على معاني محددة إلى كلمات عامة ، لا يكون إلا ثقة في أن المتلقي على وعي بما سبق ذكره ، وإذا قال قائل «هل فعلت؟» فلا يقول ذلك مبهماً إلا أن يكون المخاطب قد أدرك القصد.

وإذا استقرت المعاني في النفوس؛ فإن المبدع قد يكررها بألفاظ تدل على العموم، لأن سياق النص واحد نسيجه مترابط ، وفي القصيدة يعبر الشاعر عن مصيبتة بلفظ «ما صنعت بنا» ومعلوم أن الأحداث منها ما يسرّ ومنها ما يسوء ، ولفظ العموم «ما صنعت» تكرر لقوله «بطشها ..كفّها» ولقوله «دهتني» و التكرار يكون في الكلام تأكيداً وتشبيهاً من أمره ، وإنما يُفعل ذلك للدلالة على العناية بالشئ الذي كررت فيه كلامك ، إما مبالغة في مدحه أو في ذمه ، أو غير ذلك ⁽⁴⁹⁾ وينسحب هذا على تكراره لفظ «المحبين» بجعل «البلد» من جملتهم ، وكلاهما لفظ عام يدل على سعة شهرة جدته.

وفي ذكر الكتاب واللفظ معنيان عبّر عنهما بـ «خط ، حروف السطر» و «اللفظ» يسع المكتوب وغير المكتوب من الكلام ، والكتاب لا بدّ أن يحوي حروفاً مخطوطة «وهذا التكرار يؤدي وظيفة الانتقال من الوصف الكلي إلى التحديد أو العكس، وفي النص تكرر معنى «كتاب» بـ «خط» ، وهو تفصيل بعد إجمال ، والعكس في قوله «خطي» و «لفظي» لأنه انتقال من الخاص إلى العام.

ويكرر الشاعر معنى «السرور» بلفظ «الذي ماتت به» وكأنه لما قطع على نفسه أن يكون محرّماً عليها السرور تجنب ذكره وعبّر عنه بالاسم الموصول . وفي قوله «ولو قتل الهجر» إشارة إلى الموت ، لأن الموت هجر وليس كل هجر يكون بالموت ، كما عبّر المتنبي عن معنى الموت أيضاً بألفاظ أخرى مثل «مضى ، الذي أذهب السقما ، الكأس التي شربت بها ، يومها» وكلها ألفاظ دالة على العموم .

ويعبّر عن «القبر» بلفظ «التراب» قال «وأهوى لمثواها التراب وما ضما» كما أن قوله «وما ضما» اسم شامل أراد به «الموتى» أو «جده» وفائدة التكرار في هذا أن الشاعر يشير إشارات خفية إلى أن هذه المفاهيم يستطيع الإنسان إدراكها بصور

مختلفة .

خاتمة:

بعد هذا العرض يمكن أن نخلص إلى أن التكرار في نص المتنبي أدى وظائف بلاغية شتى تبعاً لحالة الشاعر، واسهم في اتساق عناصر النص، لدرجة يحس معها القارئ بعظمة فاجعته، فلم يفتأ يذكر الموت والمبدأ والمعاد، والمصائب، والقبر والتراب، وكل هذا كان يخدم الغرض العام للقصيدة.

ولم يكن التكرار في النص خادماً لشكله فحسب، بل تعداه إلى المضمون حين أحاط المتنبي حدث وفاة جدته بكثير من الأسباب، كل سبب منها على حدة يكفي مع تكريره. القارئ كي يسلم بما يرى الشاعر، فالسرور مثلاً قد يتحول إلى موت وهم وسم حتى يصبح من المشاعر التي يحرمها الإنسان على نفسه.

والتكرار كذلك يكون خطة من المبدع لأجل تقرير نظرة خاصة، قد تصلح لأن تكون عامة مقبولة، وحين عبّر المتنبي عن الموت بـ «الفوات» (ففاتت وفاتي) فإنما نظر إلى جوهر الفعل، وكذلك الحال مع لفظ «استسقي».

الهوامش:

- (1) ابن منظور، لسان العرب مادة كرر، دار صادر بيروت، لبنان، ج 5، ص: 135.
- (2) الزركشي بدر الدين، البرهان، تح محمد أبو الفضل، مطبعة الحلبي، القاهرة، مصر، 1976، ص: 8.
- (3) السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح علال الغازي، ص: 476.
- (4) ابن قيم الجوزية، كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ت محمد بدر الدين النعساني، مطبعة السعادة، مصر، 1327 هـ، ص: 111.
- (5) السجلماسي، المنزع البديع، ص: 476 وما بعدها.
- (6) بن جني، الخصائص، تح عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، د ط، د ت، ج 3 ص: 71 وما بعدها.
- (7) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، د ت، د ت، القاهرة، مصر، ج 1، ص: 232.
- (8) ابن فارس، الصحاح في فقه اللغة، تح: عمر فاروق الصباغ، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط 1، 1993، ص: 213.
- (9) سورة التكاثر، الآية 4، 3.
- (10) سورة يوسف، الآية 86.

- (11) ابن الأنثير، المثل السائر، ج3، ص: 5، 6.
- (12) الرحمن. الآيات 7، 8، 9.
- (13) ابي العباس القلقشندي، صبح الأعشى، سلسلة تراثنا، القاهرة، مصر، د ت، ج 2، ص: 335.
- (14) سورة الإنفطار، الآيتان 17، 18.
- (15) سورة الكافــــــــرون، الآية 1.
- (16) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، مصر، ط3، 1973، ص: 233.
- (17) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط1، ص: 47.
- (18) سورة غافر الآيتان 38، 39.
- (19) سورة يوسف، الآية 4.
- (20) سورة القدر، الآيتان 1، 2.
- (21) سورة التكاثر، الآية 3، 4.
- (22) سورة المدثر، الآية 19، 20.
- (23) ابن رشيق القيرواني، العمدة، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، مصر، ط2006، ج1، 2، ص: 64.
- (24) الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، مصر، د ط، د ت، ج 1 ص: 91.
- (25) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي وشركاؤه، ط 1، 1957، ج 3، ص: 8، 9.
- (26) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، ص: 223.
- (27) عز الدين عي السيد، التكرير بين المثير والتأثير، عالم الكتب، لبنان، ط 1986، 2، ص: 133.
- (28) المرجع نفسه، ص: 181.
- (29) محمد خطابي، لسانيات النص؛ مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1991، ص: 24.
- (30) أحمد عفيفي نحو النص، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط 1، 2001، ص: 107.
- (31) أبو نواس، الديوان، ص: 200.
- (32) جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1998، ص: 83.
- (33) المرجع نفسه، ص نفسها.
- (34) أصول تحليل الخطاب، ج2، ص: 1108.
- (35) مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص، زتسيسلاف واورزنيك، تر: سعيد بحيري،

- مؤسسة المختار للنشر القاهرة، ط 1، 2003، ص: 124.
- (36) ديبوغراند، دريسلر، مدخل إلى علم لغة النص ، تر: إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، ص: 82.
- (37) ديبوغراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسن، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط 2، 2007 ، ص: 303.
- (38) المتنبي، الديقوان، ص: 266.
- (39) ابن رشيق، العمدة، ج 2، ص: 64.
- (40) محمود شاكر، المتنبي، 165.
- (41) سراج الدين محمد الرثاء في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية ، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص: 5.
- (42) محمود شاكر، المتنبي، ص: 164.
- (43) مدخل إلى علم لغة النص ، ص: 82.
- (44) حازم القرطاجني، منهج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 223.
- (45) التكرير بين المثير والتأثير، ص: 133.
- (46) عز الدين علي السيد، التكرير بين المثير والتأثير عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط 1986، 2، ص: 90.
- (47) الخطابي ثلاث رسائل في أعجاز القرآن، ص: 47.
- (48) الفوائد ، ص: 111.
- (49) المثل السائر، 1، 232.